مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد12 / العـدد: 01 (2024)، ص: 270-285

فلسفة الحضور الأسطوري في النّص الشعري الجزائري المعاصر
أسطورة سيزيفوس أنموذجا.

The philosophy of the mythology presence in the contemporary Algerian poetic text
.The myth of Sisyphus as a model

د. ليلى دعدي[1]

[1]جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، lila.daadi@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام:30/05/2023 تاريخ القبول: 11/02/2024 تاريخ النشر: 03/03/2024

ملخّص البحث:

وظّف الشّعراء الجزائريون كغيرهم من الشعراء العرب المعاصرين، أعلاما أسطورية إنسانية جعلوا منها رمزا أدبيا وفلسفيا للكثير من القضايا التّي عاشوها فعالجوها في فترات مختلفة من الإبداع. منها (السّيكلوب، أوديب، لايوس، بروميثيوس، نارسيس، ميدوزا، هليوس، أيول، أوديسيوس، حورس، تاناتوس، سكيللا .تموز، زوس، إيزيس، عروس البحر، باخوس، فينوس، عشتروت...)

وهذا المقال يحاول أن يسلّط الضّوء على موضوع الشخصية الأسطورية الإغريقية (سيزيف/ سيزيفوس)، وكيفية توظيفه وأدائه الفلسفي والجمالي في النّص الشعري الجزائري الحديث (ما قبل الاستقلال، بعد الإستقلال، السبعينيات، الثمانينيات، التّسعينيات...) من خلال نماذج مختارة.

كلمات مفتاحية: الحضور الفلسفي للأساطير، سيزيف، الشعر الجزائري، حضور سيزيف في الشعر الجزائري

الترجمة:

Algerian poets, like other contemporary Arabe poets, employed mythology flags, making them a literary and

philosophical symbol for many of issues they lived through. they dealt with them in different periods of creativity, including the Cyclops, Odipus, Laius, Odysseus, Horus, Thanatos, Skilla, Tammuz, Zeus, Isis, Astarts…

This article sheds light on the legendary personality (Sisyphus, Sisyphus) and how to employ it And his philosophical and current performance in the modern Algerian text (pre_idepenedence, the seventies, the eighties, 90's…)

1- التّوظيف الشّعري للأسطورة في شعر ما قبل الاستقلال:

كانت الملاحظة أن دخول الشخصية الأسطورية الإنسانية النّص الشّعري العربي هو وليد الحداثة الشعرية وما أفرزته على مستوى القصيدة شكلا ومضمونا، وهذه الحداثة كانت وليدة الاحتكاك بالحداثة الغربية، بيد أنّ اللّمسة العربية، بدأت تشتغل ومنذ البدء، وهناك شعراء تركوا بصماتهم الحقة، وجعلوا من التّضمين الأسطوري حقيقة أدبية، وواقعا فنيا جماليا أصيلا، وذلك بما أفنوه من جهود، ونظر، فنفوا عنها صفة الدّخيلة، وجعلوها تتأقلم مع الجوّ العربي ومناسكه.

يندر أن نجد لشعراء الجزائر قبل الاستقلال قصيدة قد استحضروا فيها شخصية أسطورية ما، وهذا لأن الحركة الأدبية بعامة لم تكن ناضجة أو ذات حضور فعلي في تلك الفترة، نظرا للظروف الخاصة للجزائر المستعمرة، ولكن هناك استثناءات جميلة ومتميزة.

وقد وجدنا من النقاد الجزائريين من التفت إلى المنهج الأسطوري، منذ وقت مبكر ودعا إلى استخدامه في الشّعر والأدب كمحمد الحاج ناصر الذي استقبل ديوان شفيق معلوف (عبقر) "استقبالا طيبا ولفت نظر الأدباء الجزائريين إلى ما

يحتوي عليه هذا الديوان من عناية بالأسطورة التي عدّها من أبرز مظاهر النهضة العلمية المتحررة المطلقة من انحلال التّزمّت الدّيني والأرستقراطية الفكرية"([1]).

كما كتب الشاعر "الطاهر بوشوشي" قصيدة يروي فيها قصّة النّحات الإغريقي القديم "بيجماليون"([2]) صاحب التّمثال العبقري "جالاتيا" وكيف يقف حائرا متسائلا مذهولا أمام حقيقة المادة والرّوح.

2- في شعر ما بعد الاستقلال:

من هو سيزيفوس(سيزيف)؟: هو أول ملك على كورنثة في الأساطير اليونانية. كان فائق الذّكاء، ماكرا، شديد الخديعة، وهو ابن إيولوس ملك تساليا. وذات مرة وعد إله النّهر أيسوبس أن يفشي له بعض أسرار كبير الآلهة زفس، إن هو منح كورنثة نبعا من الماء على جبلها، إلا أنّ زيوس علم بالإتفاقية فغضب غضبا شديدا وأرسل إليه إله الموت "ثناتوس" ليقبض روحه، إلا أن سيزيف تمكّن من التّحايل عليه وتقييده. وبذلك منع موت النّاس مدة طويلة من الزّمن، فأرسل زيوس إليه إلأه الحرب "آرس" ففكّك قيوده "ثناتوس" وأطلق سراحه وبمجرّد أن تحرّر حتّى قضى على "سيزيف" الّذي صرخ في زوجته "ميروبي" بأن لا تقيم له جنازة ولا طقوس دفن. وهكذا غضب "هاديس" إله العالم السّفلي وزوجه برسيفوني من هذا العمل. فلم يستقبلا سيزيف لديهما وأعاداه إلى العالم الحيّ، وهكذا عاش طويلا جدا قبل أن يزوره ثناتوس مرّة أخرى، وكان زيوس عازما على الإنتقام منه ومعاقبته، وبمجرّد أن وطئت قدماه العالم السفلي حتّى جعله يقوم بدفع حجر ضخم من أسفل الجبل إلى قمّته وما إن يلامس القمّة حتّى يتدحرج الصّخر إلى أسفل من جديد في سرعة هائلة

---

[1] - الشعر الجزائري الحديث، اتّجاهاته وخصائصه الفنية 1925 . 1975: محمد ناصر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1/ 1985، ص: 575.

[2] . بجماليون هو ملك قبرص ونحّات شهير، كان ساخطا على النّساء فنذر نفسه للعزوبيّة، ثمّ صنع تمثالا لامرأة جميلة... راح يدعو أن ينفخ في التّمثال نسمة حياة تجعلها امرأة حقيقية... وتحقّقت له أمنيته فسمّاها "جالاطاي"... روى الأسطورة أوفيد في مسخ الكائنات... ألهمت الكثير من الأدباء والشعراء. معجم ديانات وأساطير العالم، إمام عبد الفتاح إمام، ج3،مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت ص: 156.

ويكون لزاما على "سيزيف" أن يقوم بنفس العمل كرّة أخرى... وأخرى... وهكذا دواليك.([3])

يوظف أبو القاسم خمار (1931) الشخصية الأسطورية الإغريقية "سيزيف" في قصيدته "اللعنة الحمراء" ويجعله معادلا موضوعيا للثورة، للإنسان الفيتنامي المناهض للإمبريالية الأمريكية، فهو لا يكتفي بالحلم والتّطلع بشوق سلبي إلى الحياة، بل هو عازم على التمرد، إنه لن يكرر الصّعود والنّزول عبثا. يقول:

"لن يرفع سيزيف الصّخرة

لن تلمع في سهم ريشه

أشباح الهندي الأحمر

ذكرى مرة

تتفجر"([4])

يؤرّخ لهذه الفترة الدكتور محمد ناصر بما بين سنتي 1962 و 1968، لأن ما جد على الجزائر في هذه الفترة من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية، أثّر على الوضعية الثّقافية والأدبية على وجه أخصّ، فساد الرّكود والخمول، وأمام هذا الفراغ الرّهيب لم يظهر جيل شاب ليخلف الرّواد ويواصل العطاء ويطوّر التّجارب، فالجيل الجديد للاستقلال حديث السّن، محدود التّجربة لم يتكوّن باللّغة العربية بصفة طبيعية، فهو يجتهد معتمدا على نفسه، أما المتمكّنين فقد آثروا السّفر لإتمام مشوارهم العلمي والدّراسي، أو اشتغلوا بثورة البناء والتّشييد([5]).

ويمثل حضور الشخصية الأسطورية في النّص الشّعري بعيد الاستقلال نوعا من التّطور الذي طرأ على لغة القصيدة، وصاحب موجة التّحديث والتّحرر التي

---

[3] . نفسه، ص: 258 والأوديسة، هوميروس، تر/ عنبرة سلام الخالدي، دار العلم للملايين، بيروت، 1996، ص: 144

[4] .أبو القاسم خمار، الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ص: 34.

[5] .الشّعر الجزائري الحديث، ص: 161.165.

مسّت الكيان الشّعري كلّه . على إثر الاتصال بالثقافات الأجنبية والشعر الغربي تحديدا .والقصيدة الجزائرية أنذاك لم تكن قد بلغت تلك المرحلة، وإن كانت نسائم الشّعر الحديث (الحرّ) قد بدأت تهبّ بلطف من المشرق، حايثها ظهور عيّنات بسيطة لاستخدام الأسطورة فهي "على غرار الشعر الكلاسيكي والرّومنسي الذّي يوظفها كموضوع للقصيدة، حيث نقف عند حدود مغزاها (التاريخي) الخاص... على نحو ما نجده في شعر أبي القاسم خمار وأبي القاسم سعد الله وعبد القادر السّائحي... وغيرهم. وهؤلاء تأتي الأسطورة في أشعارهم كلون بلاغي لا يتفاعل مع العمل الفني"([6]). شأنهم في ذلك ديدنهم في الفترة السابقة.

ولأن الشاعر الجزائري لم تكن له ثقافة معتبرة ولا ذات شأن آنذاك فيما يخص أساطير الأمم الغابرة؛ لذا آثر التريث وعدم المغامرة حتى لا يقع في تقليد جديد وهو يدعو إلى الحداثة والتّجديد. فأوضاع الجزائر الخارجة من حمّى ثورة الحرية التّي ذهبت بالأرواح الغالية، وتركت الدّنيا خرابا يحتاج إلى كثير من التّرقيع والإصلاح وإعادة البناء، لم تجعل الفرصة متاحة أمام شعراء غلب على لسانهم موال واحد مألوف، ولم تكن التّرجمة ميسورة ولا متوفرة ليفتحوا بها نوافذ على جديد العالم ولم يكن تفتحهم على إخوانهم العرب بما فيه الكفاية، ولهذا كان الإعتصام بموروثهم وتقاليد القصيدة العريقة، وكانت الأمية ضاربة أطنابها، فقلة من الشّباب من كان يجيد لغته والموهوبون منهم المتطلّعون إلى النّظم لم تكن أمامهم مفاتيح الحداثة ولم يتواصلوا معها جيدا إلا بعد مضي وقت غير يسير، وفي هذا كان ضياع وقت كثير على مواكبة موكب الجدة في التوظيف التراثي والأسطوري.

لم تكن ظروف العراق قبل أربعينيات القرن الماضي بأحسن منها في الجزائر ولكن ظروفا جيّدة قد أتيحت لبعض شعرائه فكانوا روّادا وعباقرة في التّجديد

[6] .التّناص وجماليّاته في الشّعر الجزائري المعاصر، جمال مباركي. رابطة إبداع الثقافة، 2003، ص: 210.

الشّعري والتّوظيف للأساطير بمختلف مشاربها (السياب، الملائكة، عبد الوهاب البياتي...).

إن قلّة ما جاء به شعراء الجزائر من توظيف أسطوري لا يعني أنهم كانوا دون مستوى الشّعرية أو أنهم لم يكونوا شعراء بالمرّة، أو أنهم قد قصروا في آداءاتهم الإبداعية؛ بل على العكس من ذلك تماما، فقد أنجبت الجزائر خلال هذه الفترة (قبيل الاستقلال وحتى فترة السبعينيات). أقلاما إبداعية جيدة ورائدة، كأمير شعراء الجزائر (محمد العيد آل خليفة) وشاعر ثورتنا (مفدي زكريا) وغيرهما.

إن تلك القلّة القلية لم تكن ساذجة سخيفة لا تستحق التّنويه والإشادة، بل إنها قد حققت وبيّنت صمود الجزائري وطموحه ونضاله واستماتته في المحاولة من أجل تقديم الأفضل والأجمل للغته وأمته ووطنه "وقد كتب الشعراء كثيرا من النماذج التي واكبت الأحداث العالمية المبشرة بمطلع فجر جديد للإنسانية، وتنبؤوا بزوال ما تبقى من مظاهر الإستعمار والعنصرية والتّخلّف"([7])

3- الشخصية الأسطورية في شعر السبعينيات:

مرّت سنوات من عمر الاستقلال وبدأ شعراء الجيل الجديد يستوعبون ويتشربون الحداثة ويسقون أعمالهم، فبدأت تظهر شيئا فشيئا نصوص مطعمة ببعض القضايا الإنسانية والشّعرية الجديدة وحدثت تغيرات هامة على مستوى اللغة والموسيقى والصورة والرّمز، وطعم بعض النتاج الأدبي بشيء من التراث والأساطير والتاريخ.

وجاء استحضار الشخصية الأسطورية لدى الشعراء الذين تشبعوا بالرّؤية اليسارية واضحا في نماذجه ويمكن أن نذكر هنا "حمري بحري" من خلال قصيدته "سيزيف لم يمت" التي يعبر فيها عن الفلاح الجزائري الذي كدح في الفترة الاستعمارية إلى حد الاستعباد ودون مقابل بل أضناه التعب والشقاء والجوع مثل "سيزيف" مع

[7] .حركة الشعر الحرّ في الجزائر: شلتاغ عبود شراد. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1985، ص: 130.

ذلك ظل في صدره قلب ينبض يحب الحياة فينعش رتابة أيامه المرهقة، الجافة بالحلم بالأشياء الجميلة التي تبهج النفس وتفتح طاقات الأمل، وهو يقدم ذلك من خلال هذا المشهد الشعري الأسطوري الذي جاء فيه:

"سيزيف يحيا في نزيف الحجر

يأكل خبزا يابسا

يسمع صوتا يابسا

يصعد دربا

ينزل دربا

سيزيف يحيا في نزيف الحجر

تفتح عيناه ويمشي صامتا

بين الصعود والنزول

يحلم بالحب وأشياء كثيرة"([8])

وهو أيضا ذلك الثائر الحالم بالعدالة الإنسانية، ولو بالثورة على الطغيان والاستغلال في كل مكان مهما كان، فسيزيف المنتفض الثّائر يسكن أعماق كل الأحرار في العالم، يقول في ذات القصيدة:

"سيزيف في كل مكان

سيزيف في كل زمان

يبحث عن انسان

يحلم بالريح التي تهز أوراق المطر"([9])

إن (سيزيف) رمز أسطوري فلسفي كبير يحمل اسمه معاني عدّة تستطيع أن تبلغ درجة التّضاد وتصنع المفارقة، فمن خلال قصّته التي تعرّفنا عليها سلفا يمكن

[8] .ما ذنب المسمار يا خشبة، حمري بحري، منشورات آمال، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر. 1981، ص: 103.

[9] .نفسه، ص: 104.

أن نستشفّ مكره وعناده وتحايله، ثم صموده وإصراره. ثم صبره وعذابه، إنه مستسلم لآلامه وعقابه ولكنه يأمل في الإنتصار والخلاص.

ومن الشعراء أيضا نذكر "محمد حسن أكيلال" في قصيدته "الزمن الطلسم"، إذ يقول متحدثا عن أوجاع إنسان وطني يهوى بلاده، ويضيره أن يرى المشاكل والهموم تترى عليها، وكيف يطلبون إليه أن يصبر على آلامه وأن يتجلد ويرضخ ويستكين لها كسيزيف فما هي إلا اختبار من الله! ولكنه يقرر التّحدي والثورة على مصاصي دماء الشعب المحتالين:

"ماعدت أفهم هذا طلسم زمني ****** مجدّر وجهه، إطراقه نذر
يصيح بي: لماذا أنت ترفضني؟! ****** أولست تعرف أن الرّفض لي خطر؟!
وكيف تصرخ يا سيزيف من ألم؟ ****** والله جاعله في الأرض، يختبر؟!
لا.. قلتها عفوا، أنا جسدي ****** يأبى الرّضوخ، ودمي كلّه جمر
لا.. للمرّة الألف، يا جياع فأوقدوا ******نارا على أمراء الخدر تستعر
الأرض أرضكم، والرفض دينكم *****في الصمت موتكم، في الثورة الظّفر"([10])

وقد استحضره "عبد العالي رزاقي" بدوره في قصيدته "رسالة خاصة" إلى الشاعر الاسباني "غارسيا لوركا"، بوصفه معادلا موضوعيا للإنسان المعاصر التّائه في خضم المادّة الدّائر في فلكها وفي فلك من يصنعون القرار فيجعلون الجميع يخدمونهم وهم ضائعون داخل ذواتهم تائهون فيها، يقول:

"لوركا
أنا إنسان القرن العشرين
حتى نفسي لم أفهمها منذ سنين

[10] . نماذج من الشّعر الجزائري المعاصر . شعر ما بعد الاستقلال.2، منشورات آمال، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر، 1982، ص: 270، 271.

لا أعرف دربي من أين؟

آلاف الأوهام تعشعش في ذاكرتي؟

حكمت آلهة الزيف...

أن أحمل صخرة "سيزيف"

أقبل طوعا أو كرها

تأشيرة منفى"([11])

"سوف يصلب في القلب كالرّعد بين ثنايا الغيوم

وسيزيف يصعد..

يهبط..

في شفتيه ينام نشيد قديم،

(يا هابط الجبل،

فكر في صعودك.

يا صاعد الجبل

فكر في نزولك"([12])

سيزيف، أو سيزيفوس، شخصية أسطورية تعبر عن الوجود الإنساني، عن العجز الذي لا يعيق استمرار المحاولة أو الإجتهاد في سبيل الحياة والخير والكفاح دائما هو الإستماتة بالعمل والطموح، إنه مقيّد وأسير بمهمة رفع الصخرة، ولكن روحه التواقة إلى الخلاص تجعله حرا إن كل صعود وكل نزول هو تحدّ ومواجهة، وأمل. والتّفكير في الصّعود والنزول هو قوة الحلم بالحرية والانفلات من القيود.

كما يستحضر "مصطفى أقرور" الشّخصيتين الأسطوريتين "سيزيفوس" و"برومثيوس" ليحاورهما ويحاول أن يفهم سرّ الغضب والعذاب المسلّطين عليهما، إذ

[11] .الحبّ في درجة الصّفر، عبد العالي رزاقي، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1982، ص: 97، 98.
[12] .نفسه، ص: 105، 106.

يجد نفسه شبيها بهما، بل أكثر النّاس ما هم في الحقيقة إلا "سيزيف" أو "برومثيوس" يجترون العذاب في حياتهم وهم لا يدرون لذلك سببا فيرضخون ويستسلمون وبرومثيوس كتب قصته هسيود في أنساب الآلهة وأسخيلوس في الثلاثية: (برومثيوس مقيدا، بروموثيوس سارق النار، برومثيوس حرا) إبن إيابيتوس . وثيميس وشقيق أطلس، بطل من أبطال التيتان (المردة) الذين نافسوا الآلهة من أجل حكم الكون، وهو خالق الجنس البشري، صنع له ربّ الحدادة هيفايستوس المرأة (باندورا) بأمر من (زيوس)، ولكنه تفطن لدورها فرفضها فتزوجها أخوه (إيميثوس العجوز . المتسرع). وما يروى عن سبب عذابه المقيم أنه قد قام بسرقة النار السّماوية المقدسة من مركبة الشّمس وأخفاها داخل جوف قصبة، وهبط بها إلى الأرض وأهداها إلى حبيبه الإنسان. فاستشاط (زيوس) غضبا وأمر (هرميس) أن يقتاده إلى جبل (القوقاز) وأن يشدّه إلى صخرة يأتي إليها نسر ضخم هو ابن (تيفون) فيلتهم كبده نهارا، فإذا جن الليل عاد كبده إليه مرّة أخرى كاملا سالما، ليعاود النسر التهامه في اليوم الموالي... واستمرّ (برومثيوس) في هذا العذاب ثلاثين ألف سنة إلى أن هبّ (هرقل) إلى نجدته. وقتل الصقر وخلصه من آلامه المبرحة. فكافأه (برومثيوس) بأن دله على الطّريقة التّي يحصل بها على تفاحات الهيسبيرديات. يقول في قصيدته (سيزيفوس 1986)

"سيزيفوس أيها المغضوب

عليه

أتدري من أنت؟

أتدري من أنا؟

أتدري من نحن؟

أتدري لماذا

أنت ونحن

ونحن وأنت سواسية

في العذاب؟!

... سألت بروميثوس"([13])

ويعيد ذات الأسئلة في قصيدته "ميثولوجيا 1989" عساه يجد الجواب الشافي المقنع عن أسباب الظلم والظلام التّي تلف الدنيا فتجعل الناس في شقاء وضياع وجحيم دائم، بينما يكون في الإمكان أن يعيش في أمن وسلم يقول:

قلت للدنيا لماذا العذاب؟

لماذا الظلام؟

لماذا الظلم؟

ثم في المقطع الرّابع يكرر السؤال عينه لسيزيفوس مصرّا على الظفر بإجابة تروي الظمأ، وإلا سيبقى يسأله دائما، فالشاعر لا يقنعه أن تتوحد هذه الشخصية الأسطورية دائما مع العذاب، دون أن تسأل، ودون أن يكون لها حق الجواب والتّعبير عن ذاتها:

"وأنت يا سيزيفوس

لماذا كل هذا العذاب

... ماذنبي إذا سألتك؟..."([14])

إنّ ما نستطيع أن نقف عليه بجلاء ونحن نستعرض هذه المقتطفات الشعرية هو أنّ فترة الثّمانينيات قد فجّرت "ينبوعا أدبيا مفتوحا على العوامل الفكرية والشّعرية العربية والعالمية عميق البنية، مشحونا في سياقه الثقافي بكفاءات أدبية سعت إلى استقطاب القارئ من خلال أساليب تعبيرية أدائيّة منطلقة من فضاء دلالي متعدّد الرّؤيا، متحوّل الآفاق، حاول اكتشاف آداءات صوتية، مثلما حاول إبداعيا

[13] .الضّياع ثم الضّياع مصطفى أقرور، منشورات الأنوار. قسنطينة. 2005. ص: 24و25.

[14] .نفسه، ص: 54.

وبعمق التّخلّص من الحيّز الأيديولوجي بصورة بدت وكأنها تقف على النقيض الدّلالي لشعرية السبعينيات... لقد تجلى حرص الشّاعر الجزائري على بعث الدّفء الحضاري... والنّشوة الأدبية في جسد النّص الشّعري، وتمكينه من التّواصل مع أوسع الشرائح الثقافية"، وأن يتعاطى مع الحضارة الإنسانية من أرحب أبوابها ويجعل من الشّخصيات الأسطورية الكثيرة المنتشرة في الآفاق التّراثية الخالدة مادّة تعبيرية خام يستلهم منها ما فاته وما عجز عن البوح به صراحة، كما يختزل بها ما يظنه ثرثرة وإسفافا، إذ بات يشعر أن استخدامها هو حاجة فنية ملحة لا تتّخذ تجربته الوجه الأكمل إلا بواسطتها.

استحضار الشخصيات الأسطورية اليونانية الإغريقية مصادرها وجمالياتها: لقد استحضر الشعراء العرب واستلهموا الكثير من الشخصيات الأسطورية للغرب القديم خاصة الإغريقية منها، وسأحاول أن أتقصى حضور (سيزيف) في النص الشعري الجزائري التّسعيني، بعد أن رأينا شيئا منها قبل هذه الفترة.

فترة التسعينيات:

يحاول (عقاب بلخير) في مقطع الولادة، من قصيدته (غابت الشمس.. غابت) أن يخترق الحادثة الأسطورية ويجعلها عالقة بتجربته الشعرية المتطلعة إلى النّور والمتمثل في كلّ القيم النّبيلة الّتي فقدها العالم في حمى الصّراع النّاشب من أجل احتلال المواقع المثلى:

"أين سيزيف بعبء الثقل يحيا
يحمل الشّمس ولا يعرف سرّه
قدر المكلوم في هذه الحياة
يعاني وهو مكلوم بجمرة"([15])

[15] .السّفر في الكلمات، عقاب بلخير، رابطة إبداع الثّقافية، الجزائر، ط 1/ 1992، ص: 22.

فسيزيف هنا وانطلاقا من تعمّد الشاعر قلب موقفه من العبثيّ المتعب ودورة الفراغ التي تجهده وتضنيه من أجل اللاشيء في النهاية جعله يستغل تلك الطاقة الجبارة في حمل الشّمس حتى وهو لا يدري قيمة عمله النّبيل الثمين، إنه معادل موضوعي لكلّ من يتعب ويشقى ويفنى عمره مثل الشّمعة التي تحترق كي تنير الدّروب للآخرين، إنه مثل الأم والمعلّم والفلاح... وهذا لأن "الرّمز الأسطوري يمتلك وظيفة شعرية دلالية يتعمق بواسطتها المدلول الشعري.. وتتكامل الملامح الأسلوبية الإيحائية والتّرميزية لتتّسع بذلك دلالة السياق الشّعري"

كلّما صفّقت الرّيح... رقصنا

مثل أغصان الشّجر!

... أذن المغرب... من وقت قريب

صاحت الحامل

"في بطني حجر"

وبكينا

كان "سيزيف" على مرمى حجر

يشغل النّاس

يسوّي آخر الصّف

بعد المنحدر!" ([16])

يبدأ الليل يزحف رويدا رويدا، وفجأة نكتشف أنّ كلّ ما قمنا به لم يكن إلا عبثا، ولا شيء بعد كلّ ذلك التّعب والعناء والسّهر، تماما مثلما كان يفعل "سيزيف"، عمل جبار، مضن، وهو في النّهاية لم يقم بشيء فالصّخرة تعود أدراجها بعيدا إلى قرارة الوادي السّحيق، حيث يكون مفروضا عليه أن يعيد تصعيدها. وهكذا هو

[16] . الجنوبي، ميلود خيزار، ديوان الجاحظية، قصائد جائزة مفدي زكرياء المغاربية للشّعر 1990. 2006، منشورات التّبيين، الجاحظية، الجزائر، 2007، ص: 26، 27.

عملنا مع زماننا، جهد متواصل متكرر، . من غير انقطاع . من أجل البناء والتّنمية والتّقدّم . نتيجته تؤول بدون جدوى ولا تحمل أيما فائدة وحتى "سيزيف" اكتشف هذا فينا، فجعلنا جميعا نسخة عنه، يلهو بنا، جعل الكلّ يشاركونه قدره الفارغ.

وقد تصرّف الشّاعر في أصل الأسطورة وجعل "سيزيف" هو من يلهي النّاس عن أمورهم بالعبث بالصّخرة، إذ يجعلهم يصطفون ويتناوبون في رفع الصّخور التّي لا يكون مآلها إلا العودة ثانية إلى قعر المنحدر، وكان دائما للشعراء الحق الفني والجمالي في التّصرّف في الأساطير بتجريب الإنحراف الدّلالي لما عرفت عنه أول الأمر* ولكن جوهرها الخالد يبقى لا يتأثر بالتّغيير ويظل ينبض بجذورها. فهو هنا ساخر، يسخر من جميع النّاس، بعدما كان في ماضيه مصدر السّخرية لرضاه بعذابه في الصّعود والنّزول خلف الصّخرة، إذ كان قد أثار شفقتنا فيما مضى. ونحن الآن أولى بشفقته وعطفه!! فهل يا ترى قد تحرّر (سيزيف) في النّص الشّعري الجزائري التّسعيني من عبث الصّعود والنّزول والأمل البائس؟!، وما أتعس الأمّة التّي تكون حال أفرادها متشابهة مليئة بالفراغ والخواء، وبالتّعب والنّصب من دون فائدة ترجى وقد تساوى الجميع أمام مهبّ الرّيح كأنهم أوراق شجر، لا يملكون لأنفسهم حولا ولا قوّة ولا يستطيعون تغيير مصائرهم والتّمرّد على "سيزيف" وصخرته.

يصوغ (عثمان لوصيف) (الجبال) قصيدة تتماهى في الأجواء الأسطورية . الواقعية، فلا نعثر على (سيزيف) فيها إلا كعنصر صغير مذاب، فالجبال هي الأسطورة، و(سيزيف) مجرّد صخرة من صخورها، إنها آية من آيات الله الكبرى التّي يدعونا إلى تأمّلها فتملأ القلب رهبة وجلالا، يقول:

"تتمطى الجبال

على امتداد البصر

كأنها ديناصورات عملاقة

تتثاءب في سبات عميق"([17])

وإنّه الإنسان هذا الصّغير الجبّار في عزمه، يتحدّاها، ويقف في وجهها، ويصنع منها الآيات التّليدة، الفريدة، والتّحف العجيبة.

"..... هذا الكائن الذي لا يفتأ

يصارعها أبدا ولا يتعب

هذا المخلوق العجيب الذي يفجرها"([18])

وفي ضلاله، وعماه يعبد صخورا ينتزعها منها ثم ينحتها أربابا من دون الله ظانا فيها القدرة والمشيئة.

"..... هذا الذّي ينحت منها

آلهة يتعبّدها

ويقدّم لها

القرابين... والبخور"([19])

ولكن ذلك الضلال لا يأخذه بعيدا، فيتقلّص وتزداد الصّخور صلابة والجبال علوّا وامتشاقا... يزداد عماء وتوحّدا مع الحجارة في كلّ مكان، وفي كل زمان، جاعلا منها مادّة رهيبة يملأ بها قلبه وروحه ودنياه، يعمل في مناجمها فوق الأرض وتحت الأرض ويصير (سيزيف) لا همّ له سوى أن تصعد الصّخرة إلى أعلى ولا يرضيه نزولها، فيتعقّبها آملا طامعا في أن تستقرّ يوما في مكانها دون أن يدرك أن العمر ينسحب، وأنه لا يفعل شيئا في حقيقة الأمر سوى السّير قدما نحو قدره المسطّر، والمدوّن في ظهر آدم يوم خلقه:

".....ويبقى هذا العبد

أسير الحجر

---

[17] .قراءة في ديوان الطبيعة، عثمان لوصيف، دار هومة للطباعة والنّشر، الجزائر، 1999، ص: 58.

[18] .نفسه، الصفحة نفسها.

[19] .نفسه الصفحة نفسها.

يدحرج صخرة سيزيف

يدحرج سيزيف نفسه"([20])

وهكذا نكتشف أن الإنسان مقارنة بتلك الجبال ما هو في حياته الكؤود والقاسية العنيدة الواقفة في وجه الجبل إلا امتثالا لذلك المعذّب بالإرهاق والتّعب والفزع واللاجدوى، وإنها الحياة نملؤها كدّا وكدحا ونسقي أيامنا بالعمل الدّؤوب والعرق البارد:

"يتحدّى الحجارة

يشكّلها كيفما يشاء

يزيّنها بالتّصاوير والنّمنمات

وفي أحشائها المتحجّرة

القاسية

يحفر مصيره القاسي([21])

خاتمة

عبر العديد من الأجيال الشعرية الجزائرية كان سيزيف حاضرا بحمولته الفنية، والفلسفية لموقف الانسان ضد كل القوى التي قد تعبث بحياته ومبادئه وخياراته كالحرية والحياة الكريمة.

[20] .نفسه، ص: 59.

[21] .نفسه، الصفحة نفسها.